

رد على قدر :

مع البلاغيين . . .

للأستاذ علي العمري

كتب الأستاذ كامل شاهين في عدد « الرسالة » (٦٩٢) مقالا تحت عنوان (علوم البلاغة بين القدامى والحديثين) يرد به علي وعلى الأستاذ علي الطنطاوي فيما كتبتاه عن علوم البلاغة في الجامعة . وأنا أوتر أن أترك للأستاذ الطنطاوي أن يرد عما وجهه إليه الكاتب . فللأستاذ أسلوبه وقلمه البليغ ، وما أحب أن يحرم قراء « الرسالة » من بيانه في هذا الموضوع . والأستاذ شاهين مشكور لأنه لما رأى سكوت الأستاذ الخولي وجماعته من الذين يسمون أنفسهم (الأمناء) تبرع بالذنب عنهم ، والاتصار لهم ، وما أظنهم راضين عنه فقد كان السكوت أولى من مثل هذا الرد المملوء أخطاءً وتخليطاً ، وحسب القراء أن أنقل إليهم الفقرة الأولى من كلامه ليتبينوا مدى ما فيها من الأغاليط :

١ - « تقول إن الفكرة المتسلطة عليه في هذا الفن أن يجعل لكل عبارة من عباراته منبجاً لمعان نفسية . أي نعم يا علي ، أنت قرأت تعريف البلاغة ؟ إن الذي لا يختلف فيه اثنان هو أن البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ولا أزيد بيانا ولا بسطاً ولكن هذه المطابقة لا تكون إلا بإدراك التكلم لنفسية السامع وما تحوى من ملابسات . فهذا هو فخوى كلام الأستاذ الخولي أفتباري في هذا ؟ إذن فهات تعريفك أنت لعلم البلاغة فإننا منتظرون » .

كما أرجو أن تعلمي أيها العزيزة - إن كنت لا تعلمين - أنني لا شأن لي بما يقع في كتابي من خطأ في بعض الأحيان . فليست أنا مصدرها ، ولا يجوز أن أحاسب عليها . إنما يؤخذ بها قلبي ، فهو من نوع غير جيد ، وكثيراً ما يثبث في الكتابة ، ويخونه التوفيق ، فيجري بنير الصواب .

كامل كيماني

وأنا قد قرأت تعريف البلاغة ، واطلمت على أكثر الكتب التي عرفت البلاغة ، ومما يؤسف له يا سيد كامل أن أحداً من العلماء لم يعرف البلاغة هذا التعريف الذي ذكرته ، ويبدو لي أنك تريد أن تجدد كما يجدد الشيخ أمين الخولي ، والتجديد سهل ميسور ، مادام قصارى المجدد أن يسوق قضايا مغلطه ، وإليك ما أعرفه أنا وما يقوله العلماء في تعريف البلاغة :

ذكر يحيى بن حمزة صاحب كتاب الطراز وهو من الكتب المدودة في البلاغة تعريفها فقال : « اعلم أن البلاغة في وضع اللغة هي الوصول إلى الشيء والانهاء إليه فيقال بلغت البلد أبلغته بلوغاً والاسم منه البلاغة ، وسمى الكلام بليغاً لأنه قد بلغ به جميع المحاسن كلها في ألفاظه ومعانيه ، وهو في مصطلح النظار من علماء البيان عبارة عن الوصول إلى المعاني البديعة بالألفاظ الحسنة ، وإن شئت قلت هي عبارة عن حسن السبك مع جودة المعاني » فهذا عالم من علماء القرن الثامن الهجري وهو يذكر أن هذا التعريف (في مصطلح النظار من علماء البيان) وعرفها أبو هلال العسكري صاحب الصناعتين فقال : « البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتتمكن في نفسه لتتمكن في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن » ، وللعلماء والأدباء تعاريف كثيرة للبلاغة ليس منها : مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

ونحن إذا سألنا طالباً صغيراً عن تعريف علم المعاني يقول : « إنه علم بقواعد وأصول يعرف بها مطابقة الكلام لمقتضى الحال » . فإذا قلنا له : هل مطابقة الكلام لمقتضى الحال هي البلاغة . يقول : لا . بل لا بد من زيادة وإضافة إليها . فنقول كما قال بعض العلماء (مع فصاحته) ، وهذه عبارة مهمة جداً ومكتملة للتعريف .

والطلاب الصغار يعرفون أن علوم البلاغة ثلاثة : المعاني ، والبيان ، والبديع . وأن لكل علم تعريفاً خاصاً ، ولا يصلح تعريف علم منها لأن يكون تعريفاً للبلاغة . فهل يصح الأستاذ شاهين على أن هذا التعريف للبلاغة « لا يختلف فيه اثنان » أو يسم معنا أنه كذا حيث أراد النهوض .

على أنني كنت أعتقد كلام الأستاذ في علم البيان وقلت (في هذا الفن) أقصده فهل يحتاج بتعريف علم المعاني على كلام في علم البيان ؟

كان رماحهم أشطان بئر بعيد بين حائنها غرور
الح... الح .

وتكذب على هذه التشبيهات بما شئت فأنتك تستطيع أن
تحيطها بكثير من المعاني ، ولكنها بعد من عندك وصنعك ،
ولم يفكر فيها الشاعر ولا إليها قصد .

يختلف من الأستاذ شاهين في سر إعجاب جرير بن الخطابي
بتشبيه عدى بن الرقاع في بيته :

ترجى أغن كأن إبرة روقه قلم أصاب من اللوأة مدادها
فهو يرى أن سر إعجاب أن هذا التشبيه حضري وعدى
بدوى جلف جاف ، وأنا أرى أن سر الإعجاب أن الشاعر
استطاع أن يأتي بمشبه به موافق كل الموافقة للمشبه . ثم جاء به
من مكان بعيد لا ينتظر أن يهتدى إليه .

غزال صغير له قرن صغير في طرفه سواد أراد الشاعر أن
يلتمس له شهباً وجرير حاضر فوقع في نفسه أنه لا يمكن الإتيان
بشبيه له لدقته وبمده عن الافهام ، فلما تهدي إليه الشاعر ووجده
في قلم لم يصب من المداد إلا قليلاً ووجد جرير أن الشبه تام بين
الشبه والشبه به حمد عدياً على هذه القوة البيانية .

أما أنه حمده على أنه أتى بشبيه حضري فمضى ذلك أن
جريراً كان يتوقع من الشاعر أن يهتدى لهذا التشبيه نفسه
أو مثله من التشبيهات الحضرية ، وما أظن جريراً خطر على باله
شيء من ذلك . وهب أن شاعراً شبه شيئاً بدويًا بشيء حضري
وكان التشبيه ضعيفاً واهتأ أكان يجب ذلك جريراً . لا . وإنما
إعجاب به كان لما ذكرنا .

ه - كنت أحب للأستاذ شاهين أن يخلو نقده من هذه
الكلمات .

« فليسمح لي الزميلان الطنطاوي والعماري أن ألفت نظرهما
إلى مزالق ما كنت أحب لها أن يتورطا فيها أو يتحدرا إليها » .
وقوله : « فأما إذا أحدثت إلى هذا فهم » وقوله : « وليس
هذا بالكلام يصنى إليه » إلى غير ذلك من الكلمات التي تجرح
وأظن أنا كلنا له ساعاً بصلح فان زاد زدناه .

على العماري

المدرس بمعهد القاهرة

٢ - قلت إن اللغة العربية مملوءة بالتشبيهات المحبة التي
لا ترى إلى معاني ورائها ، وعبت على الشيخ الخولي أن يعتبر
جمل العلماء بيان حال المشبه من أغراض التشبيه (كلاماً فارغاً)
بجاء الأستاذ شاهين يرد علينا هذا ، وهو لم ينصف الشيخ أمين
ولم ينصفنا .

العرب يقولون : أسود كحنك الغراب ، ويقولون : أحر
كالدم القاني ، ويقول امرؤ القيس :

ترى بمر الآرام في عرساتها وقيمانها كأنه حب فلفلس
ويقول الله سبحانه وتعالى (وجفان كالجواب وقدور راسيات)
أفلا تكون هذه التشبيهات مقبولة حتى تلتس لها معاني ورائها .

على أن الخبط وتلس المعاني سهل ميسور ما دمنا لا نبالي
الخطأ . فكل إنسان يستطيع أن يحمل النصوص ما لا تحمل ،
ولذلك مثال سقناه في مقالنا الثالث المنشور في « الرسالة » وهو
تغليق الشيخ أمين على بيت بشار بن برد .

٣ - ونحن لا نأخذ كلام المتقدمين قضايا مسلحة دائماً ،
كما لا نهم أذواقهم ولكننا نقبل منها المقبول ، ونرفض ما يتبين
أنه ضعيف وإم . وليس كلامهم الذي سقناه بالكلام الضعيف
الواهي ولكنه حسن جميل يعتمد على الذوق قبل كل شيء ،
فأنت حين تسمع ذكر المشبه تستشرف لاسيما بعد وتحظر في
ذهنك أكثر التشبيهات القريبة ؛ فإذا جاء الشاعر أو الناثر
بتشبيه بعيد نادر وقع من نفسك موقفاً حسناً ، وعرفت مقدار
ما طاق الشاعر في استخراج هذا التشبيه . والتشبيه فن ، وهو
يكون في الماديات البحتة كما يكون في المنويات ، وتلس المعاني
وراء كل تشبيه إنما هو تمننت وحذقة .

أين المعاني النفسية وراء قول طرفة :

كان حدوج المالكية غدوة بقايا سفين بالنواصف من دد
أو قول امرئ القيس :

كان ثبيراً في عرانيين وبه كبير أناس في بجاد مزمل
أو قول المهلهل بن ربيعة :

كانا غمدوة وبني أينا يجنب عنزة رَحياً مدير
أو قوله :